دلالـــة الألـــفاظ وتطـــورها

د. محمد السيد علي بلاسي (*)

لاشك أن اللغة هي رمز التعبير ووســيلته، وهـــي الأداة التي تنقل الأفكار وتترجم عنها، ولا ريب أن تلك الأفكار تنتقل إلى طالبها في قوالب خاصة هي الألفـــاظ، وهذه الألفاظ يختارها كل مجتمع حسب حاجاته وأحواله الاجتماعية، فأرباب الصحراء يميلون إلى وعورة اللفـــظ وخشونته، وأرباب المدينة تحمل ألفاظهم سمات مدنيتـــهم وحضارتهم، من رقة وعذوبة.

ولا ريب أن المعاني التي تحملها هذه الألفاظ تمـــر عليها، منذ نشأتها مراحل تاريخية -كما هو الحال الآن- فاللغات البشرية قد قطعت مراحل طويلة الأمد، وتقلبت عليها أجيال متعاقبة منذ أقدم العصور، وكل جيـــل لـــه سمات قد ورث بعضها عن أجداده أو أخذه ممن يخالطهم وابتكر بعضها الآخر، تبعا لمقتضيات حياتـــه، وبيئتـــه، والأحداث التي مر بها، اجتماعية ونفسية...

ولاريب – كذلك – أن الألفاظ تمـــر في تلـــك المراحل، وتتلقفها الأجيال، بما تحمله من معان قد تبقـــى، وقد تتغير، وقد تنحرف، حسب عادات وأسباب لا يمكن التنبؤ بها جميعها، ولكن يمكن من دراسة الألفاظ نفســـها الوقوف على بعضها. كما أن المعنى نفســـه قـــد يـــتغير مفهومه لدى الأجيال من الشرف إلى الضعة، وبالعكس، وأصوات الألفاظ كذلك، عرضة لهذا التغيير.

ولكل لغة قواعدها المنتظمة، وأساليبها المعّينة الـــتي تتبعها في سيرها عبر التاريخ، غير أن الأيام تـــؤثر فيهـــا، وتدخل بعض التغيرات عليها.

وبناء على ذلك، فلا أظن أن المعاجم وحدها- في أية لغة – مهما كانت متقدمة ومنظمة، هي التي تعبر عن دلالة الألفاظ في اللغات، بحيـــث لا تحتـــاج بعـــدها إلى دراسة، ذلك لأن الدلالة تخضع لمؤثرات كثيرة، وعوامـــل متعددة اجتماعية ونفسية، وتطورية، وتاريخية. والمعجـــم إنما يصف اللغة في مرحلة معينة، ودون تفسير للـــدلالات التي ينطوي عليها، من النواحي المذكورة، أما علم الدلالة "السيمانتيك" فهو الذي يدخل العوامل التي أشرنا إليها في الاعتبار، فيدرس النص اللغوي أو الكلمة، ملاحظا المتكلم والسامع والظروف السياسية والاجتماعية والتارخية التي مرت عليهما...

ولأهمية هذا الفرع، وتشعب بحوثه، ولج بابه علماء كثيرون من الفلاســـفة واللغـــويين، وعلمـــاء الـــنفس والأنثربولوجيا، والأدباء، والفنانين، والاقتصاديين، وعلماء الدراسات الطبيعية.

وقد ظهر اسم هذا العلم semantique في مقـــال

(*) عضو هيئة التدريس بجامعة الأزهر

كتبه ميشيل بريال سنة1883م، ويعد هذا العالم الفرنسي من أوائل الواضعين لعلم الدلالة على أساس تـــارخي لا وصفي.

وعلم الدلالة التاريخي يدرس تغير المعنى، وما يتصل به، من عصر إلى عصر، أما الوصفي، فيدرس ذلـــك في مرحلة معينة، من مراحل اللغة.

وعُني بالبحث فيه، كذلك، من الغربيين كـــثيرون منهم الأساتذة : وتني الإنجليـــزي وكـــروس الإيطـــالي، وفونت الألماني. [1]

هذا، وقد اهتم علماؤنا العرب — قبل الغـــربيين- بالدلالة، لأن لغتهم تمتاز بـــالثراء الواســـع، والتصـــرف المعنوي العريض، فكل لفظ — في اللغة العربية-له إيحاءات كثيرة، ويستعمل في التراكيب المختلفة بمعـــانٍ تتفـــاوت بتفاوت العبارات، أضف إلى ذلك ما تحتويه من الكلمات التي تؤدي عدة معان، تبعا لتعدد القبائل الناطقة بها.[2]

وظهر في هذا الميدان أقطاب، كابن جني، عالم اللغة المشهور- في سِفْرِه "الخصائص" وابن فـــارس في كتابـــه الطي" وابن حاتم الرازي في كتابه المســـمى" الزينـــة في الكلمات الإسلامية والعربية".

مفهوم الدلالة:

لقد عرّفها علماء اللغة بأنها : كون الشيء بحالـــة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، ويسمى الشيء الأول الدالّ و الآخر المدلول [3].

أنواع الدلالة :

لقد قسم الباحثون الدلالة إلى أربعة أنواع:

1- الدلالة المعجمية : وهي الدلالة التي وضـــعها الـــأسلاف للألفاظ المختلفة، وتكفلت ببانها قواميس اللغة حسب ما ارتضته الجماعة واصطلحت عليه، وتســـتعمل في الحياة اليومية بعد تعلمها بالتلقين والسماع، والقـــراءة والاطلاع على آثار السابقين الأدبيـــة، شـــعرا ونثـــرا، ويتطلب هذا التعليم زمنا ليس بالقصير قبل أن يسيطر المرء على لغة أبويه [4].

ومن أمثلته تغير مدلول ألفاظ الصلاة، والزكـــاة، والخليفة، والسلطان، والديوان وغيرها. ولما زاد اخـــتلاط العرب بغيرهم من الأمم الأجنبية امتد التغيير امتدادا كبيرا إلى المعاني القاموسية كما في كلمتي"طويل اليد"وبطحة"[5].

ولعل ذلك ناشئ عن نسيان المعاني الأصلية لبعض الكلمات، وتحريف معاني بعضها الآخر[6]، إلى غير ذلـــك من أسباب تطور الدلالة والتي سنتحدث عنها فيما بعد.

ب- الدلالة الصوتية: وهي ما يكون بين أصـــوات بعض الكلمات وطرائق نطقها وبين معانيها من ارتباط.

فقد اكتشف بعض العلماء، في طائفة من الألفـــاظ العربية، صلة بين ألفاظها ومعانيها، فبينوا أن العربي كان يربط بين الصوت والمعنى، فيجعلهما متشابهين، فيدل على المعنى الضعيف بأصوات ضعيفة، وعلى المعـــنى القـــوي

---

(1) د.عبد الغفار هلال: علم اللغة بين القديم والحديث، ص 10-107 بتصرف يسير — ط 2 الجبلاوي سنة 1406 هـ.

(2) لمزيد من التفصيل راجع : المرجع السابق ص 235 وما بعدها.

(3) فقه اللغة : د.ابراهيم أبو سكين، ص 14 ط. الأمانة سنة 1404 هـ

(4) علم اللغة بين القديم والحديث ص 196 نقلا عن دلالة الألفاظ د. إبراهيم أنيس ص 49 ط 3 سنة 1972م

(5)"وطويل اليد" في القاموس : من تمتد يده بالعطاء، وهي صفة كريمة، وتطور دلالته في العامية الآن وأصبح بمعنى اللص وطويل اليد بمعنى السرقة. أما "بطحة" ففي القموس بمعنى : بسطة ممتدة على الأرض، ومعناه الآن : عورة. انظر ص 197 من كتاب علم اللغة بين القديم والحديث للدكتور هلال — بتصرف-.

(6) علم اللغة بين القديم والحديث د. عبد الغفار حامد : ص 197، 198 — بتصرف يسير-

بأصوات قوية، ومن ذلك كلمتا (سدّ) و(صدّ) فكلتاهما لمعنى الحاجز إلا أن الأولى، لباب ونحوه وهو ضعيف فاستخدمت له السين الضعيفة، والثانية، لجانب الجبل وهو قوي، فاستخدمت الصاد القوية.

وهكذا جعل العربي الصوت في مقابل المعنى المناسب له، وتمتد المناسبة من الحرف الواحد إلى حرفين، وإلى جميع حروف الكلمة[7].

وللنبر والتنغيم أيضا علاقة بالمعنى وذلك - وإن لم يتضح في العربية الفصحى -- لعدم اكتمال دراسته فيها- فإنه يظهر كثيرا في العاميات.

ومن أمثلته (محمد جه) فهذه الجملة تستعمل استفهاما أو إخبارا، حسب اختلاف موقع النبر والتنغيم، وقولك لشخص (رائع جدا) على سبيل التهكم بنغمة خاصة وعلى سبيل المدح بنغمة أخرى.

وتعتمد بعض اللغات على النبر والتنغيم في بيان المعاني، كالصينية والإنجليزية في بعض الأحيان، فالكلمة الواحدة قد تكون اسما أو فعلا تبعا للمقطع المنبور.

فالصوت يرتبط بالمعنى، وطريقة الأداء لها دخل في التعبير عنه وهذا وإن كان خاصا ببعض الألفاظ وطرق أدائها فإن له أهمية في كشف جانب حيوي من دلالة الألفاظ [8].

جـ- الدلالة الصرفية : وهي التي تستمد من الصيغ وبنياتها. فعندما نسمع (قطع) و(قطّع) ندرك أن الصيغة الأخيرة تدل على التكثير، قال تعالى : "وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ" (يوسف:23). وعندما نسمع (شاكر) (شكور) ندرك أن الصيغة الأخيرة تدل على ما يدل عليه اسم الفاعل (شاكر) من حيث الحدث وفاعله، وتزيد عليه في أنها تدل على كثرة الشكر والمبالغة فيه من فاعله[9].

د- الدلالة النحوية : وهي التي تستمد من ترتيب الجملة، وفق ترتيب المعنى المراد، بحيث لو اختل هذا الترتيب دون قرينة تعين على فهم المعنى المراد لأصبح من العسير فهم المعنى المراد. ففي الجملة "زار عيسى موسى" لو قلنا : "زار موسى عيسى" دون قرينة، لاختلف المعنى وتعسر فهم المراد[10] .

ظواهر التطور الدلالي:

ترجع أهم ظواهر التطور الدلالي إلى ثلاثة أنواع[11] :

أحدها - تطور يلحق القواعد المتصلة بوظائف الكلمات وتركيب الجمل وتكوين العبارة... وما إلى ذلك كقواعد الاشتقاق والصرف والتنظيم... وهلم جرا، وذلك كما حدث في اللغات العامية المنشعبة عن اللغة العربية، إذ تجردت من علامات الإعراب وتغيرت فيها قواعد الاشتقاق واختلفت مناهج تركيب العبارات.

وثانيها — تطور يلحق الأساليب، كما حدث في لغات المحادثة العامية المنشعبة عن العربية، إذ اختلفت أساليبها اختلافا كبيرا عن الأساليب العربية الأولى.

وثالثها- تطور يلحق معنى الكلمة نفسه، كأن يخصص معناها العام، فلا تطلق إلا على بعض ما كانت تطلق عليه من قبل، أو يعمم مدلولها الخاص فتطلق على معنى يشمل معناها الأصلي ومعاني أخرى تشترك معه في

---

(7) نفس المرجع: ص 198، وما بعدها. ولمزيد من التفصيل راجع : اللغة العربية.. خصائصها وسماتها : د. عبد الغفار هلال، ص 173 وما بعدها، ط 3 سنة 1403 هـ والمزهر: للسيوطي: 53/1، ط 3 – عالم الفكر. والخصائص : لابن جنى 57/2، وما بعدها، ط 3 – دار التراث، ودراسات في فقه اللغة: د. صبحي الصالح: ص 142 ط 10 دار العلم للملايين.

(8) علم اللغة بين القديم والحديث : ص 199.

(9) فقه اللغة: د. ابو سكين، ص 16.

(10) المرجع السابق : ص 16.

(11) د. على عبد الواحد وافي : علم اللغة، ص 313، 314 بتصرف – ط 9 – دار نهضة مصر

بعض الصفات، أو تخرج عن معناها القديم فتطلق على معنى آخر تربطه به علاقة ما، وتصبح حقيقة في هذا المعنى الجديد بعد أن كانت مجازا فيه، أو تستعمل في معنى غريب كل الغرابة عن معناها الأول.

أسباب تطور الدلالة [12]

الأسباب التي تؤدي إلى تغير الدلالة كثيرة، بعضها لغوي وبعضها اجتماعي، ولكل منهما علاقة بالآخر، فاللغة ظاهرة اجتماعية...

أولا: الأسباب اللغوية: وهذه الأسباب متعددة، وأهمها:

أ- كثرة استعمال اللفظ: فكثرة استخدام العام مثلا في بعض ما يدل عليه يزيل مع تقادم العهد عموم معناه، ويقصر مدلوله على الحالات التي شاع فيها استعماله. ولدينا في اللغة العربية وحدها آلاف من أمثلة هذا النوع. فمن ذلك جميع المفردات التي كانت عامة المدلول ثم شاع استعمالها في الإسلام في معان خاصة تتعلق بالعقائد أو الشعائر أو النظم الدينية، كالصلاة والحج والصوم والمؤمن والكافر والمنافق والركوع والسجود... فالصلاة مثلا -- معناها في الأصل الدعاء، ثم شاع استعمالها في الإسلام في العبادة المعروفة لاشتمالها على مظهر من مظاهر الدعاء، حتى أصبحت لا تنصرف عند إطلاقها إلى غير هذا المعنى. وقس على ذلك جميع أفراد هذه الطائفة [13].

ب- خفاء معنى اللفظ أو نسيان مجال استعماله: إذا خفي معنى اللفظ على الناطقين باللغة في جيل معين، أو في انتقالها من جيل إلى آخر فلم يفهم معناه، أو لم يتضح لديهم، تعرض للتغيير. فكلمة (منيحة) كان معناها: إعارة إنسان ناقة أو شاة ليشرب لبنها، فتطور -- مع مرور الأجيال في بعض عاميات (نجد) إلى معنى شراء ناقة لهذا الغرض. فلعل المعنى -- مع طول الزمن- لم يتضح لدى الأجيال أنه خاص بمعنى الإعارة فانتقل إلى معنى الشراء.

جـ- تطور أصوات اللفظ : فثبات أصوات الكلمة يساعد على ثبات معناها وتغيرها يذلل أحيانا السبيل إلى تغيره، وذلك أن صلتها بالأسرة التي تنتمي إليها وبالأصل المشتقة منه تظل وثيقة وواضحة في الذهن ما دامت محتفظة بصورتها الصوتية، وقوة هذه الصلة تساعد على ثبات مدلولها على حين أن تغير صورتها الصوتية يضعف صلتها في الأذهان بأصلها وأسرتها ويبعدها عنهما، وهذا يجعل معناها عرضة للتغيير والانحراف. فالوصف اللاتيني vivus مثلا، ظل محتفظا بمعناه الأصلي (الحي، ضد الميت) طوال المدة التي احتفظ فيها بأصوات بنية، وذلك لقوة ارتباطه عن طريق هذه البنية بأفراد أسرته. Vivre, vita, etc. ولكنه لم يلبث بعد أن تغيرت صورته الصوتية الفرنسية إلى vif أن أخذ ينحرف شيئا فشيئا عن مدلوله القديم حتى بعد عنه وأصبح يدل الآن على الوصف بالقوة والحدة والنشاط وذلك لأن تغير صورته الصوتية باعد بينه وبين أفراد أسرته Vivre, vita, etc فعرض مدلوله لهذا الانحراف.

د- أثر بعض القواعد اللغوية: تؤدي بعض نظم اللغة وقواعدها -- أصلا إلى تغير المعنى. فكلمة سراويل -- المعربة من الفارسية- تدل على المفرد لكن على وزن (فعاليل) -- إحدى صيغ الجموع في اللغة العربية -- ولذلك توهمها بعض العرب جمعا مفرده (سروال).

وكذلك كلمة paradeisos تدل على المفرد في

---

[12] علم اللغة بين القديم والحديث : ص 212 – 226 بتصرف، وقارن ب: علم اللغة : د. وافي ص 319 - 325

[13] ابن فارس : الصاحبي، ص 83-86 ط عيسى الحلبي سنة 1977م، فراجعه تجد تفصيلا.

اللغة الإغريقية، فلما انتقلت إلى العربية ووجدها العرب على وزن (فعاليل) توهموها جمعا فصاغوا لها مفردا هو "فردوس".

هـ - انتقال اللفظ من لغة لأخرى: تنتقل بعض الألفاظ من إحدى اللغات إلى غيرها بسبب انتقال ما تدل عليه، أو للحاجة إليها في العلوم والفنون أو لغير ذلك. وكثيرا ما يتغير مدلول الكلمة على إثر انتقالها من لغة إلى لغة: فقد يخصص مدلولها العام وتقصر على بعض ما كانت عليه في لغتها الأصلية، وقد يعمم مدلولها الخاص وقد تستعمل في غير ما وصفت له، لعلاقة ما بين المعنيين وقد تنحط إلى درجة وضيعة في الاستعمال فتصبح من فحش الكلام وهجره، وقد تسمو إلى منزلة راقية فتعتبر من نبيل القول ومصطفاه...

ومن ذلك كلمة : "زركون" الفارسية فهي — في بيئتها الأصلية — بمعنى : "ذهبي اللون" فلما دخلت العربية حولت الكاف إلى جيم — بالتعريب — فنطقت (زرجون) واتسع معناها فأطلقت على (الخمر —الكرم- وأشجاره وأغصانه- صبغ أحمر). ومع ذلك فبين المعاني الجديدة والمعنى الأصلي وشائج قربى.

وإذا استأثر اللفظ الأجنبي بالاحترام والتقدير ترك أثرا ظاهرا في تطور المعنى.

ثانيا : الأسباب الاجتماعية :

ويمكن أن نجملها فيما يلي :

أ- اختلاف طبقات المجتمع : فكل مجتمع يضم طبقات مختلفة في البيئة التي يعيشون فيها من مدن وقرى، وجبال وسهول، ووسائل حياة متنوعة، وهذه الطبقات ذوات حرف ومهن كثيرة وبينها تباين في نظم الحياة والتفكير ودرجات التعليم والثقافة وغير ذلك، وينعكس أثر هذا الاختلاف على اللغة كما ينعكس على غيرها من مظاهر حياتهم، فلا ريب أن كل فريق منهم يفهم بعض ألفاظ اللغة على نحو خاص، أو يدخل عليها بعض التغيير الذي يناسبه، وذلك قد يؤدي إلى اختلاف دلالتها. فكلمة حقل — مثلا- لها مفاهيم خاصة لدى الطبقات الاجتماعية التي تستعملها. فالحقل- لدى طبقة الفلاحين — خاص بالأراضي الزراعية، مكان عملهم اليومي، على حين أنها تطلق لدى العلماء والباحثين على ميادين إجراء بحوثهم، فيقولون : أثبتت التجارب في هذا الحقل صحة ما نذهب إليه من النتائج العلمية التي تشمل كذا وكذا، ويقال حقل القوى البشرية...إلخ.

ب- التغيير الاجتماعي : إذا شق المجتمع طريق التقدم في الصناعة أو العمران أو الثقافة أو غيرها من مظاهر حياته، تغيرت مدلولات بعض الألفاظ تبعا لذلك، فكلمة (الريشة) مثلا (plume) كانت تطلق على آلة الكتابة، أيام أن كانت تتخذ من ريش الطيور، ولكن تغير الآن مدلولها الأصلي، تبعا لتغير المادة المتخذة منها آلة الكتابة، فأصبحت تطلق على قطعة من المعدن مشكلة في صورة خاصة.

جـ- الحالة النفسية: للحالة النفسية أثر في استعمال بعض الألفاظ، فقد يلجأ المتكلم نتيجة لتفاؤله أو لتشاؤمه إلى استخدام اللفظ في ضد معناه، كما سُمّيت الصحراء (مفازة)، تفاؤلا بالنجاة من المخاطر التي تعترض سالكها، وكما سُمي (الأعمى) (بصيرا) عزاء لحالته التي تؤلم النفس و أملا في أن يعوضه الله نورا في بصيرته.

اتجاهات التطور الدلالي:

يحدث التطور الدلالي تدريجيا في أغلب الأحوال، ولكنه قد ينتهي آخر الأمر بتغيير كبير في المعنى، وتغيرات

المعنى غالبا ما تكون صدى لتغير الميول الاجتماعية، وهذه الميول الاجتماعية، أوضح في حالة "التغير الدلالي" منها في حالة "التغير الصوتي".

وقد استطاع اللغويون، بعد طول النظر فيما يطرأ على المعاني من تغيرات في لغات كثيرة، أن يحصروا اتجاهات هذه التغيرات في أنواع رئيسية تصدق على جميع اللغات [14] ويمكن أن نلخص هذه الاتجاهات في أمور ثلاثة هي [15]:

1- المقارنة بين المعنى القديم والجديد: ويبدو في ثلاث صور :

أ- تعميم المعنى الخاص : ومن ذلك، في الإنجليزية، كلمة Barn كانت تدل، فيما مضى، على "مخزن الشعير" ولكنها الآن تدل على مخزن أي نوع من أنواع الحبوب، وعلى مخزن ما سوى الحبوب أحيانا.

ب- تخصيص المعنى العام: وذلك كالألفاظ الإسلامية التي استعملت قبل ظهور الإسلام لمعان عامة ثم خصصها الإسلام بمجالات معينة، كلفظ (الصيام) — مثلا- فقد كان معناه قبل الإسلام: الإمساك مطلقا، ثم خصّه الإسلام بالنية، وحظر الأكل والمباشرة وغير ذلك من شرائع الصوم.

جـ - انتقال اللفظ من معنى إلى آخر أجنبي عنه: فالنافقاء إحدى جحور اليربوع التي يستطيع بها هذا الحيوان أن يفلت من صائده، وقد اشتقت منها — بعد الإسلام- كلمة "المنافق" لمن يظهر خلاف ما يبطن.

والعلاقة متحققة في التشابه بين المعنى القديم والمعنى الجديد.

2- ارتباط المعنى الجديد بالقديم : يلاحظ — في تطور المعنى — وجود علاقة — غالبا- بين المعنى الأصلي والمعنى المنتقل إليه، وأهم هذه العلاقات:

أ- علاقة الاستعارة وهي المشابهة: فقد يكون الارتباط بين المعنيين — القديم والجديد — قائما على أساس المشابهة بينهما. مثل كلمة (المجد) فقد كانت في الأصل تدل على امتلاء بطن الدابة بالعلف، ثم انتقلت إلى معنى السمو والرفعة الذي يعبر عن امتلاء الانسان بالخصال الحميدة، فالعلاقة — كما هو واضح- المشابهة في الامتلاء وإن كان الأول حسيا والثاني معنويا.

ب- علاقات المجاز المرسل : ونذكر منها السببية كما في قولك " رعينا الغيث" والمراد النبات، والمسببية كما في قو له تعالى: "ويترل لكم من السماء رزقا" والمراد المطر، والظرفية كما في قولك "شربت كأسا" والمراد ما فيها.

وقد انتقلت — بعلاقة المجاورة الزمانية — كلمة (العقيقة) من الدلالة على الشعر الذي يخرج على الولد عند خروجه من بطن أمه إلى الدلالة على الذبيحة التي تنحر عند حلق ذلك الشعر.

3- العلاقة الاجتماعية بالمعاني واستعمالها: فالمجتمع قد يرفع بعض المعاني ويضع غيرها، يؤدي عصر ما إلى شيوع بعض المعاني وندرة بعضها الآخر، فالدلالة تسمو أحيانا وتنحط أحيانا أخرى باعتبار نظرة المجتمع إليها، ونوضح ذلك فيما يلي:

أ- سمو الدلالة : ومن ذلك انتقال كلمة (بيت) من الدلالة على المسكن المصنوع من الشعر إلى البيت الضخم

---

(14) د. محمود السعران: علم اللغة، ص 227-234 بتصرف — ط دار المعارف بمصر سنة 1962

(15) علم اللغة بين القديم والحديث، ص 227-234- بتصرف — وقارن ب: علم اللغة: د.السعران، ص 305- 316 وراجع : لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة :د. عبد العزيز مطرص 280-288، ط دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة 1386 هـ، تجد مزيدا من التفصيل.

الكبير المتعدد المساكن الذي نعهده في المدن.

وأيضا كلمة marshal (مارشال) الإنجليزية كانت تعني في وقت من الأوقات الغلام الذي يتعهد الأفراس (maras) أي صبي الإصطبل !

ب- انحطاط الدلالة : وهذا النوع من التغير في المعنى يصدق على الكلمات التي كانت دلالتها تُعدّ في نظر الجماعة "نبيلة" "رفيعة" "قوية" نسبيا، ثم تحولت هذه الدلالات، فصارت دون ذلك مرتبة، وأصبح لها ارتباطات تزدريها الجماعة.

من ذلك كلمة (الاحتيال)، كان معناها البحث وبذل الجهد للوصول إلى هدف، ثم تحولت – في عصرنا- إلى معنى الخداع للوصول إلى مآرب شخصية، وهذا مستقبح في عرف الجماعة !

خواص التطور الدلالي [16]

1- إنه يسير ببطء وتدرج : فتغير مدلول الكلمة مثلا لا يتم بشكل فجائي سريع، بل يستغرق وقتا طويلا، ويحدث عادة في صورة تدريجية، فينتقل إلى معنى آخر بعيد كل البعد عن معناها الأول !

2-إنه يحدث من تلقاء نفسه بطريق آلي لا دخل فيه للإرادة الإنسانية : فسقوط علامات الإعراب في اللهجات العربية الحاضرة – مثلا-، حدث من تلقاء نفسه في صورة آلية لا دخل فيها للتواضع أو إرادة المتكلمين.

3- إنه جبري الظواهر: لأنه يخضع في سيره لقوانين صارمة لا يد لأحد على وقفها أو تعويقها أو تغيير ما تؤدي إليه. وإليك مثلا حالة اللغة العربية، فعلى الرغم من الجهود الجبارة التي بذلت في سبيل صيانتها ومحاربة ما يطرأ عليها من لحن وتحريف، ومع أن هذه الجهود كانت تعتمد على دعامة من الدين، فإن ذلك كله لم يحل دون تطورها في القواعد والأساليب ودلالة المفردات إلى الصورة التي تتفق مع قوانين التطور اللغوي، فأصبحت على الحالة التي هي عليها الآن في اللهجات العامية.

4- إن التطور الدلالي، في غالب أحواله، مقيد بالزمان والمكان: فمعظم ظواهره يقتصر أثرها على بيئة معينة وعصر خاص، ولا نكاد نعثر على تطور دلالي لحق جميع اللغات الإنسانية في صورة واحدة ووقت واحد.

5- إنه إذا حدث، في بيئة ما، ظهر أثره عند جميع الأفراد الذين تشملهم هذه البيئة، فسقوط علامات الإعراب، في لغة المحادثة المصرية مثلا، لم يفلت من أثره أي فرد من المصريين.

من هنا، ومن تلك الخواص، يتبين فساد كثير من النظريات القديمة بصدد هذا التطور، فليس بصحيح ما ذهب إليه بعض العلماء من أن هذا التطور يحدث نتيجة لأعمال فردية اختيارية يقوم بها بعض الأفراد وتنتشر عن طريق المحاكاة؟ ! وإنما يرجع هذا التطور – فيما نرى- إلى جبرية الظواهر اللغوية، وهذا ما نادت به قديما مدرسة ألمانية الأصل، أطلق على أفرادها "المحدثين من علماء القواعد" Néo-grammairiens ورأوا أن قوانين التطور لا يستطيع أي فرد تعويقها أو تغييرها، وأن واجب الباحث في هذه الظواهر ينبغي أن ينحصر في تحليلها لكشف القوانين الخاضعة لها...

---

[16] د.وافي : علم اللغة ص 314-318، 57 – بتصرف.